نهاية إقدام العُقول

إثباتُ نسبةٍ ... ودفعُ اتهام

أ.د. صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عُثْمَانَ سِنْدِيُّ

نهايةُ إقدامِ العقول .. إثباتُ نسبةٍ، ودفعُ اتهام

○ **مقدمة:**

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن مما سار في الناس –فيما يزيد على ثمانية قرون– أبياتُ الفخر الرازي المشهورة: (نهاية إقدام العقول عقالُ ..)؛ فكم الكتب التي أوردتها، والألسن التي أنشدتها، وما ذاك إلا لأهميتها؛ فهي تصف –في كلمات وجيزة– حقيقة ما يؤول إليه الاشتغال بعلم الكلام[١].

لقد كانت صرخةً من خبيرٍ به، غوّاصٍ فيه، نادى في الناس: إن من ابتُلي به سيجد نفسه بعد حينٍ صِفرَ اليدين، إلا من وحشةٍ وشك!

لقد ترجم الرازي في أبياته –بصدقٍ وحسرة– ما قرره أهل السنة والجماعة وأكثروا ترداده: أن علم الكلام ضياعٌ للعمر بلا طائل، بل مَدرجةٌ إلى الحيرة، وطريقٌ إلى التِّيه[٢].

فأين ما أضنى نفسه شطرًا كبيرًا من حياته في تشييده: من تعظيم شأن العقل وتحكيمه، وتأصيل أن لا قطع (يقين) إلا في الدليل العقلي، المقدّم على الدليل النقلي[٣]؟!

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والسلف إذا ذموا أهل الكلام وقالوا: علماء الكلام زنادقة، وما ارتدى أحد بالكلام فأفلح؛ فلم يريدوا به مطلق الكلام، وإنما هو: **حقيقةٌ عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير طريقة المرسلين**». مجموع الفتاوى (٤٦١/١٢). وعليه **فعلم الكلام**: «هو: ما أحدثه المتكلّمون في أصول الدين، من إثبات العقائد بالطرق التي ابتكروها، وأعرضوا بها عما جاء الكتاب والسنة به». فتح رب البرية بتلخيص الحموية (٩٥).

(٢) التيهُ: "المفازة يتيهُ الإنسان فيها". مجمل اللغة (١٥٣).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فتجد أبا عبد الله الرازي يطعن في دلالة الأدلة اللفظية على اليقين، وفي إفادة الأخبار للعلم؛ وهذان هما مقدمتا الزندقة!» مجموع الفتاوى (١٠٤/٤).

لقد ذهب أدراج الرياح! فلم يَصِل مِن بعدُ إلى يقين وانشراح، بل إلى وحشةٍ ووبال، وقيل وقال!

ودونك اعترافه المتأخر عن منزلة العقل في المباحث الإلهية -وفق النهج الكلامي-: «فحاصلُ العقول: ظنونٌ وحُسبانات، ومنتهى الأمر: أوهامٌ وخيالات»[1]!

فلا غرو إذن أن يندم آخر أمره على اشتغاله بعلم الكلام؛ فقد «قال الشيخ تقي الدين ابن الصلاح رحمه الله: أخبرني القطب الطوغاني مرتين أنه سمع الفخر الرازي يقول: "ليتني لم أشتغل بعلم الكلام"، وبكى»[2].

ولم يَدرج الرازي وحيدا في هذا المضمار؛ فقد شاركه جمعٌ من أساطين علم الكلام، الذين ما أن بلغوا فيه أشدهم: حتى أشرقت أمامهم حقيقته؛ فتجرعوا حينها غُصص الندامة، ودونك خواتيم كبارهم[3]، والله الهادي.

والحاصل: أن من رامَ النجاة واليقين فليلزم جادة السلف الصالح، ومنهج أهل السنة والجماعة[4]، وليقدّم الوحي على كل ما سواه ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) رسالة ذم لذات الدنيا (٢٥٢)، وهي من آخر ما كتب؛ حيث سطّرها قبل وفاته بسنتين، كما سيأتي.

(٢) طبقات الفقهاء الشافعيين لابن كثير (٧٨٠/٢). ونقل هذا أيضا: الذهبي في تاريخ الإسلام (١٣٧/١٣)، وابن قاضي شهبة في طبقات الشافعية (٦٥/٢)، والداوودي في طبقات المفسرين (٢١٧/٢)، وابن العماد في شذرات الذهب (٤١/٧).

(٣) قال أبو المعالي الجويني: «قلّبت في علم الكلام اثنتي عشرة ألف ورقة، وإن لم يلطف الله بابن الجويني فيموت على دين العجائز؛ فواخيبته!». البدر السافر للأدفوي (٧٤٢/٢). و«قال الفقيه غانم الموشيلي: سمعت الإمام أبا المعالي يقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام». سير أعلام النبلاء (٤٧٣/١٨).

(٤) قال ابن القيم رحمه الله: «فمتى رأيتَ أصحاب الأدلة السمعية يقول أحدهم عند الموت: "نهاية إقدام العقول عقال"، أو يقول: "لعمري لقد طفت المعاهد كلها"، أو يقول: "فيك يا أغلوطة الفكر"، أو يقول: "والله ما أدري على أي عقيدة أموت"؟! إلى أضعاف ذلك من أحوال أصحاب الشبه العقلية، وبالله التوفيق». الصواعق المرسلة (٧٤٢/٢).

○ **دعوى مردودة:**

هذا؛ وقد زعم بعض الأشاعرة المعاصرين أن تلكم الأبيات منحولة على الفخر الرازي، وأن الذي افتراها عليه: شيخُ الإسلام ابن تيمية!

هكذا! دعوى مرسلة، بلا برهان ..

وإذا الدعاوى لم تقم بدليلها بالنص، فهي على السَّفَاه دليلُ

ومن أولئك الخَرّاصين: حسن السقاف –الأشعري–؛ فإنه قال بعد أن أوردها: «هذا كله مكذوب على الإمام الرازي، ولا شك في ذلك عندنا، وقد أخذه مجسمة العصر من كتب ابن تيمية، وأذاعوه في المشرق والمغرب، فلتعلموا أنه كذب بحت على الإمام الرازي!! والله المستعان، وأقول: إن هذه الأبيات هي من نظم ابن تيمية، وكأنه يصف بها نفسه»[(١)].

ويبدو أن وقع هذه الأبيات التي أبانت عن عظيم أسفِ إمام علم الكلام في خاتمة مطافه – كان عليهم كبيرا؛ حيث بلغ بهم[(٢)] إلى هذه السخافة!

ومن العجب أن السقاف نقل أن السبكي أوردها معزوّة للرازي في طبقات الشافعية الكبرى، ثم علق قائلا: «وعلى فرض ثبوتها عنه لا تفيد أنه تراجع عن مذهبه!»[(٣)].

ولست أقول إن دلالتها على التراجع توازي دلالتها على الندم والحيرة؛ لكن السؤال: لِمَ الروغان والكيل بمكيالين؟

أي: لِمَ لَمَ يتهم السقافُ السبكيَ بما اتهم به ابن تيمية؟!

أو على الأقل: لِمَ لَمَ يلتزم بلوازم فريته؛ فيزعم أن السبكي قد انطلت عليه "أكذوبة ابن تيمية"؟! أم أنه خشي أن لا يصدقه أحد؟ وهكذا فليكن العلم، والإنصاف!

مهما يكن من شيء؛ فلقد كشف السقاف ومن سار على نهجه عن ضعفٍ علمي مقرون باتباعٍ للهوى.

---

(١) صحيح شرح العقيدة الطحاوية (٦٧).

(٢) أعني السقاف ومن وافقه؛ فقد وقفت في بعض المواقع الشبكية والصحف على ما يشبه كلامه.

(٣) صحيح شرح العقيدة الطحاوية (٦٧).

فهل كان يُعجزهم أن ينظروا في أقرب كتب التراجم إلى أيديهم ليتحققوا من كون الأبيات منحولة على الرازي أم لا؟

وتسهيلا عليهم، وجبرا لضعفهم أقول: إن هذا الأبيات ثابتة عن الفخر الرازي بلا مِرية، بل هي مشهورة مستفيضة عنه، ولم يشكك في ثبوتها عنه أحد من المتقدمين فيما أعلم.

وسوف أسوق فيما يأتي –بعون الله– البيّنة على هذا؛ دفعا للاتهام الباطل عن الإمام الهمام ابن تيمية رحمه الله، وإظهارا لأُنموذج –من نماذج كثيرة– لحقيقة ما عليه مخالفو أهل السنة في العلم والإنصاف، والله المستعان.

- **الأبيات:**

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا

- **البَيّنة:**

إثبات كون هذه الأبيات من نظم الرازي: من ثلاث طرق:

- **أولا: وجودها في كتابه الذي كتبه بيده: (ذم لذات الدنيا).**

وهل في الأدلة أصرح من هذا! فقد قال الرازي في كتابه هذا[1]: «وقد قلت في هذا المعنى: نهاية إقدام العقول عقال ... ».

---

(١) في صحيفة (٢٦٢). وهو مطبوع عن خمس نسخ خطية (طبعة ليدن)، حققه أيمن شحادة، والكتاب يبدأ من صحيفة (٢١١).

وأنبه إلى أن ما يُنقل عنه عقيب هذه الأبيات من قوله: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا ... ». [انظر: بيان تلبيس الجهمية (٤٢٠/١)، ومنهاج السنة (٢٧١/٥)، والنبوات (٤٠٨/١)، ودرء التعارض (١٦٠/١)، ومجموع الفتاوى (١١/٥)، وإغاثة اللهفان (٤٥/١)، والصواعق المرسلة (٦٦٥/٢)] لم أقف عليه في هذا الكتاب المطبوع (ذم لذات الدنيا)؛ فلربما هو في بعض نسخ الكتاب غير التي طُبع

إلى آخر الأبيات السابقة، وبعدها بيتان:

وكم قد رأينا من جبالٍ ودولةٍ فبادوا جميعا مسرعين وزالوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها رجالٌ فزالوا، والجبال جبالُ

ومن عجيب حال بعض أولئك الخرّاصين أنهم شككوا في وجود كتاب الرازي هذا، ومنهم من قطع بعدم وجوده، بل وادعى أن ابن تيمية قد نحله عليه أيضا!

واستروحوا –ومنهم السقاف في تتمة كلامه السابق– إلى كلام للدكتور محمد رشاد سالم في تعليقه على نقل ابن تيمية هذه الأبيات ونسبتها إلى كتاب "أقسام اللذات" للرازي، حيث قال: «لم أجد هذا النص فيما بين يدي من كتب الرازي سواء المطبوع منها والمخطوط ... وهذا الكتاب مخطوط بالهند، ولم يذكره بروكلمان ضمن مؤلفات الرازي»[1].

والحق أن الكتاب ثابت قطعا عن الرازي[2]، وفي ضمنه الأبيات السابقة.

ولم يُصب الدكتور محمد رشاد –رحمه الله– في نفي ذكر بروكلمان له؛ بل قد ذكره ضمن مؤلفات الرازي، لكن باسم: (ذم لذة الدنيا)[3].

عنها، فإن له نسخا عديدة، وقد ذكر المحقق منها سبع نسخ مخطوطة، منها نسختان لم يقف عليهما، ولربما –على بُعد– هو كلامه في كتاب آخر من كتبه المفقودة؛ فضُمّ النثر إلى النظم، وسيقا مساقا واحدا؛ لاتحاد موضوع الكلام، والله أعلم.

وقبل أن يسارع أحد أولئك الخرّاصين باتهام شيخ الإسلام وابن القيم باختلاق نسبته إلى الرازي؛ أنبه إلى أن غيرهما قد نقله أيضا؛ ومنهم: الذهبي في سير أعلام النبلاء (٥٠١/٢١)، وابن كثير في البداية والنهاية (١٣/١٧) وطبقات الفقهاء الشافعيين (٧٨٠/٢)، وابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية (٢٤٤/١)، وابن قاضي شهبة في طبقات الشافعية (٦٥/٢)، وابن العماد في شذرات الذهب (٤١/٧)، والداوودي في طبقات المفسرين (٢١٧/٢).

(١) حاشية درء التعارض (١٦٠/١).

(٢) وقد أورده الدكتور محمد الزركان ضمن الكتب التي لا شك في نسبتها للرازي، انظر: الفخر الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية (٧٨).

(٣) تاريخ الأدب العربي (٣٦٨/٥) طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب.

والرازي لم يعنون لكتابه هذا؛ ولذا تنوعت أسماؤه في المخطوطات؛ ففي بعضها: ذم لذات الدنيا، وفي بعضها: تحقير اللذات، وفي بعضها: كتابٌ للفخر الرازي في جواب أسئلة أحوال اللذات المطلوبة في الدنيا .. إلخ[١].

وقد طبعه محققه باسم: رسالة ذم لذات الدنيا.

وسبب ذلك –والله أعلم– أنه لم يصنفه تصنيف الكتب؛ وإنما هو جواب سؤال ورد إليه؛ حيث قال في مقدمته: «أما بعد، فقد سألتني عن أحوال اللذات المطلوبة في الدنيا، والكشف عن حصر أقسامها ...»؛ وعليه فهو لم ينص على اسمه كما فعل في كتبه المصنفة؛ فاجتهد مَن بعده في تسميته.

وأنت ترى أن المقدمة تفيد معنى الاسم الذي ذكره شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم: (أقسام اللذات).

وقد سماه الدكتور محمد الزركان –المتخصص في تراث الرازي– أيضا بـ: (أقسام اللذات)، ثم قال: «وأعتقد أن هذا الكتاب هو الذي يذكره بعض المؤرخين باسم ذم اللذات الدنيا، أو ذم الدنيا»[٢].

وهو من آخر ما ألّف؛ فقد كتبه قبل وفاته بسنتين[٣]؛ فما ضمّنه فيه مِن آخر آرائه.

- **ثانيا: نقلُها عن الرازي بالإسناد المتصل.**

ومن ذلك:

١– ذكر ابن أبي أصيبعة أنه سمع هذه الأبيات من بديع الدين البندهي الذي سمعها من الفخر الرازي[٤].

---

(١) انظر مقدمة المحقق (٢٠٥–٢٠٨).

(٢) الفخر الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية (٧٨–٧٩).

(٣) حيث أرّخ كتابته لهذا الكتاب في شعبان سنة أربع وستمائة كما في خاتمته، انظر: (٢٦٥)، وكانت وفاته سنة ست وستمائة.

(٤) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (٤٦٨). ونقل هذا –أيضا– عن ابن أبي أصيبعة: ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار (٨٠/٩)، والصفدي في الوافي بالوفيات (١٨١/٤).

فههنا ليس بين ابن أبي أصيبعة والرازي إلا رجل واحد!

٢- قال الموصلي في كتابه قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان[١]: «أنشدني أبو المعالي عبد الجبار بن محسن بن مزني بن عبد الجبار الجيلي الهمامي؛ قال: قرئ على شيخنا أبي الفضل محمد بن عمر الرازي لنفسه، وأنا أسمع: ...» ثم ساق الأبيات.

وههنا -أيضا- ليس بين الموصلي والرازي إلا رجل واحد!

٣- لسان الدين ابن الخطيب في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة[٢] عن شيخه أبي عبد الله المقري، قال: «وقال [المقري]: أنشدني المجاصي، قال: أنشدني الإمام نجم الدين الواسطي، قال: أنشدني شرف الدين الدمياطي، قال: أنشدني تاج الدين الآمدي [والصواب: الأرموي] مؤلف "الحاصل"، قال: أنشدني الإمام فخر الدين لنفسه ...» ثم ساق الأبيات.

ونقلها عنه -أيضا- المقّري (الحفيد) في كتابه نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب[٣].

٤- الشاطبي في كتابه الإفادات والانشادات[٤] حيث قال: «أنشدني الشيخ الفقيه القاضي الأعدل أبو بكر محمد بن عمر بن علي القرشي الهاشمي أبقاه الله في السابع والعشرين لذي الحجة من عام سبعة وخمسين وسبعمائة قال أنشدني أبي، قال أنشدني شرف الدين الدمياطي، قال أنشدني تاج الدين الأرموي قال أنشدني الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي لنفسه ...» ثم ساق الأبيات.

- **ثالثا: تتابع العلماء على إثباتها في كتبهم منسوبةً إليه بلا إنكار.**

---

(١) (٨٤/٥).

(٢) (٢٢٢/٢).

(٣) (٢٣٢/٥).

(٤) (٨٤-٨٥).

وممن أوردها[1] -ومنهم من تقدم-:

١- ياقوت الحموي في معجم الأدباء ٢٥٩٠/٦

٢- الموصلي في قلائد الجمان ٨٤/٥

٣- ابن أبي أصيبعة -كما تقدم- في عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٤٦٨

٤- ابن الساعي في الدر الثمين ٢٤١

٥- ابن خلكان في وفيات الأعيان ٢٥٠/٤[2]

٦- أبو الفداء الملك المؤيد في المختصر في أخبار البشر ١١٢/٣

٧- الذهبي في تاريخ الإسلام ٤٠/١٣

٨- الأدفوي في البدر السافر عن أنس المسافر ٨٨٧/٢

٩- ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار ٨٠/٩

١٠- ابن الوردي في تاريخه ١٢٥/٢

١١- الصفدي في الوافي بالوفيات ١٨١/٤

١٢- اليافعي في مرآة الجنان ٨/٤-٩

١٣- ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى ٩٦/٨

١٤- الإسنوي في كتابه المهمات في شرح الروضة والرافعي ٢٨٧/١

١٥- ابن كثير في البداية والنهاية ١٣/١٧، وفي طبقات الفقهاء الشافعيين ٧٨٠/٢

١٦- الشاطبي -كما تقدم- في الإفادات والإنشادات ٨٤-٨٥

١٧- ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية ٢٤٤/١

١٨- ابن الوزير في العواصم ١٠٢/٢، والروض الباسم ٣٤٨/٢[3].

١٩- ابن الملقن في العقد المُذهب في طبقات حملة المَذهب ١٥٠

---

(١) سوى شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله.

(٢) **وهؤلاء الخمسة متقدمون زمنا على ابن تيمية، الذي اتهمه الخرّاصون بأنه صاحب الأبيات!**

(٣) واكتفى فيهما بالبيت الأول.

٢٠- العُليمي في التاريخ المعتبر ١٦٣/٣

٢١- الداوودي في طبقات المفسرين ٢١٨/٢

٢٢- الطيب بامخرمة الهِجراني في قلادة النحر ٢٤/٥

٢٣- ابن العماد في شذرات الذهب ٤٢/٧

فهؤلاء أكثر من عشرين عالما -من الشافعية ومن غيرهم- جزموا بنسبة هذه الأبيات إلى الرازي، ولم يترددوا في إضافتها إليه، ومنهم من توفي قبل ولادة ابن تيمية!

وهذه أكثر من عشرين مصدرا أوردت الأبيات بلا أدنى تشكيك في نسبتها إليه.

ولو شئت أن أستزيد لفعلت، وفيما سقته الكفاية.

والخلاصة: أن القوم قد نفروا أشد النفرة من ثبوت هذه الأبيات عن إمامهم الرازي، فتسارعوا إلى ادعاء براءته منها؛ لأنها تغمز منهجهم الكلامي من قناة، وتزهّد فيه؛ لكنهم لم يأتوا بطائل؛ فثبوتها عنه لا يقبل التشكيك.

وأهدى من هذا وأرشد: أن يتحلوا بالإنصاف، ويتجردوا لقبول الحق، ثم أن ينتفعوا بالوصية، ويتعظوا بالموعظة، والسعيد من وُعظ بغيره.

وأختم بما قلتُه معارِضًا أبياته تلك:

نعم؛ لم يفدك البحثُ عمرَك كلَّهُ ... سوى جمعِكَ الهذيانَ: قيل وقالوا

لأنك قد جافيتَ سُنةَ أحمدٍ ... ومن يَجفُ سنته هم الضُّلالُ

يظنُ أناسٌ أنْ سينجُوا بغيرها ... وذاك لعمري خيبةٌ وخَبالُ

أسأل الله المعافاة من الأهواء، والثبات على السنة والتوحيد، والهداية لضال المسلمين.

والحمد لله رب العالمين، صلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: أ.د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي

الخامس من شعبان ١٤٤٢هـ، في طيبة